"الكاهنة" في المصادر العربية بين الأسطورة والخطاب السياسي

العربي عقـون
جامعة منتوري (قسنطينة) الجزائر

Entre le mythe et l'histoire officielle, la Kahina échappe encore, aujourd'hui, à ceux qui veulent l'appréhender.

Glorifiée par les uns, mythifiée, et même folklorisée par les autres, dans deux sens contraires et contrariés ; la vision des deux camps n'est pas encore concordante, donc par cette contrariété nous ne pouvons pas presque jamais arriver à une certaine réconciliation avec notre histoire !

Entre le mythe et la véracité se situe La Kahina - d'après l'historiographie arabe - un personnage à la fois réel et surnaturel, entre les deux s'écrit son histoire, un récit mêlant l'insolite à l'historique, le prodigieux au réalisme. De la réalité naît donc le mythe ; et par le mythe se raconte ? ou se recrée ? une réalité. Il est une lecture à la fois objective et subjective du monde extérieur ainsi que de ceux qui l'organisent et le font exister.

Dans ce papier nous tenterons, en fait, de remettre notre héroïne, la Kahina, dans sa place réelle, dans une analyse plus approfondie, qui se distingue de la légende, issue de l'imaginaire collectif d'une oralité populaire, tout comme du détail minoré par la version officielle de l'Histoire, celle des vainqueurs.

مقدمة

لا نعرف إلا القليل عن الملكة الأفريقية **تيهيا**[1] التي روّجت لها المصادر العربية تحت اسم "الكاهنة"، وما نعرفه هو ما دوّنته تلك المصادر من أخبار وروايات متواترة - شبيهة بما يسمّى اليوم" البروباغاندا " [2] - أريد لها أن تحل محلّ الحقيقة التاريخية، لأنّ الحقيقة التاريخية في كثير من الأحيان

---

1 الاسم الوارد في المصادر العربية هو ديهيا بالدال المهملة، ولكن الأبحاث اللغوية الحديثة ترجّح أن يكون الاسم محرفا في اللسان العربي لقرب مخرج حرفي التاء والدال من بعضهما البعض، فيكون الاسم إذن تيهيا وقد احتفظت لهجة السوس الأقصى بهذا الاسم الذي يعني المرأة الحسناء إلى اليوم. أمّا عن نسبها فقد جاء عند ابن خلدون أنها ديهيا بنت تابتة بن نيفان بن باورا بن مصكسري بن أفرد بن اوصيلا بن جراو. ينظر: ابن خلدون (عبد الرحمن)، العبر، (المعروف بتاريخ ابن خلدون) ج 7، طبع ونشر دار الكتاب اللبناني، بيروت 1983، ص 11.

2 البروباغاندا (*Propaganda, propagare*) كلمة لاتينية تعني الترويج لشيء ما أو نشر معلومات عنه من قبل هيئات أو منظمات أو مجموعة من ذوي المصالح بهدف التمكين لنزعة أو رؤية مذهبية أو سياسية أو فكرية وذلك بترسيخها في الأذهان وحمل جمهور الشعب على اعتبارها حقيقة. أنظر : *Rey (Alain), Dictionnaire historique de la langue française; Dictionnaire LE ROBERT , Paris 1998, p. 2972.* -

وللتوسع أكثر في موضوع البروباغاندا بكل أشكالها يمكن مراجعة :

Ellul (Jacques), Propagandes, Armand Colin, 1962, pp. 75-93 -

لا تساير السياسات المنتهجة من قبل القوى التي تمتلك السلطة، وفي حال الملكة موضوع هذه الورقة، لم يصل إلينا غير ما سمحت به السلطة السياسية والدينية. ومنذ أول نصّ مدوّن عن هذه الملكة المحاربة وهو نصّ الواقدي[3]، ظل من جاء بعده يكرر نفس المعلومات مع بعض الفروق والإضافات "الأسطورية" التي لا تحيد عن جوهر الرواية الواردة في كتاب الواقدي.

نريد في هذا المقال أن نتتبع تطوّر هذه الروايات وتداخل عناصر أسطورية دعائية فيها عبر كتابات المؤرخين المسلمين، وإذا كانت أحداث الوقائع الحربية بين الأفارقة بقيادة الملكة "الكاهنة" وجيش التوسّع الأموي قد تمّت ما بين 693 و702 م، أي في نهاية القرن السابع ومطلع القرن الثامن الميلادي فإنّ تدوين تلك الوقائع قد تأخّر إلى القرن التاسع، أي بعد قرن ونصف القرن[4]، وهو دليل على أنّ هذه الوقائع ظلّت تروى شفويا، ليأتي المدوّنون في ما بعد فيختاروا منها ما يتلاءم مع رؤى السلطتين الدينية والسياسية من تمجيد لوقائع التوسع العسكري الأموي، باعتباره **"فتوحات"** مجيدة، من جهة، وحطّ من شأن كل معترض على ذلك التوسّع وتقديمه في صورة نمطية تحطّ من قدره ، باعتباره معارضا لرسالة سماوية، من جهة أخرى، وهذا شكل من أشكال الحرب النفسية التي كثيرا ما نجدها تسير جنبا إلى جنب مع كل توسع عسكري عبر التاريخ[5].

أ- المؤرخون المشارقة

يمكن الرجوع تباعا إلى المؤرخين المشارقة الذين دوّنوا وقائع التوسع العسكري الأموي شرقا وغربا، ويبدو أن جيوش تلك التوسعات لم تكن تعمل بتقليد كان يجري به العمل في الإمبراطوريات السابقة مثل الرومان الذين كانوا يحرصون على تدوين أعمالهم الحربية يوما بيوم، وكان في عداد جيوشهم كتبة معتمدون للقيام بهذه المهمّة، لكن يبدو أنّ قيادات جيوش التوسع الأموي لم تنتبه إلى هذه المسألة لأنّها من أمّة لا تزال إلى ذلك الحين شفوية ، فتركت المسألة إذن للروايات الشفوية التي تنزع في كثير من الأحيان إلى التهويل والعجائبية في سردها للوقائع.

1- الواقدي (130-207 هـ /823 - 747 م)

أقدم نصّ عربي بين أيدينا عن "الكاهنة" يعود إلى الواقدي جاء فيه:

"... أظهرت الكاهنة غضبها لمقتل كسيلة (...) حكمت أفريقيا بقوة وقامت بأعمال فظيعة (...) وعلى إثر مقتل زهير بن قيس (67 هـ) لحق بمسلمي القيروان ضرر كبير (...) فقام عبد الملك بن مروان بإرسال حسان بن النعمان على رأس جيش كبير لقتال الكاهنة (...) انهزم الجيش وقتل منه الكثير، فانسحب حسان

---

3 الواقدي هو محمد بن عمر بن واقد السهمي (747-823 م) كرس حياته لتدوين الأخبار والسير والمغازي أهم آثاره كتاب التاريخ والمغازي، ينظر : الحافظ الذهبي : سير أعلام النبلاء ج 09 ، ط 1، إشراف شعيب الأرناؤوط ، تحقيق كامل الخراط ، نشر دار الرسالة 1985 ، ص ص 454-469.

4 وهو ما أشار إليه ليفي – بروفنسال في مقاله اعتمادا على رواية واردة في مخطوطة عبيد الله بن صالح : فتح العرب للمغرب، ينظر : - Levi-Provençal (E.), "Un nouveau récit de la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes", Arabica, Vol. 1, 1954, pp.17-43.

5 للتوسع أكثر في شأن الإشاعات المواكبة للحروب يمكن الرجوع إلى دراسة مارك بلوخ القيّمة :

- Bloch (Marc), Réflexions d'un historien sur les fausses rumeurs de la guerre, Mélanges historiques, publications de l'école pratique des hautes études, Paris 1963, Vol. I, pp. 41-57.

بمن بقي معه إلى برقة وبقي هناك إلى سنة 74 هـ حيث جهّز له عبد الملك جيشا كبيرا وأمره بقتال الكاهنة، فسار حسان بجيشه وقاتل الكاهنة وقتلها، هي وأبناؤها، وعاد إلى القيروان" [6].

في هذا النصّ نقطتان ينبغي التوقّف عندهما وهما :

النقطة الأولى : إنّ "الكاهنة" اشتدّ بها الغضب بمقتل كسيلة، وهذا ما يجعلنا نعيد النظر في شأن العلاقة التي كانت تربط بين الاثنين، فهل كان كسيلة كبير ضباط الملكة؟ أم أنّ كلاّ منهما كان على رأس مملكة وما يربط بينهما هو التحالف أمام خطر يهدّد الجميع ؟

النقطة الثانية : إنّ حسان قتل "الكاهنة" وولديها وهذا مخالف للروايات الأخرى التي سنذكرها وهي روايات تتحدث عن مؤاخاة "الكاهنة" بين ولديها وأسيرها خالد بن يزيد العبسي. فهل تم قتل ولدي "الكاهنة" فعلا مع أمّهما؟ وما قصة التآخي إلا استدراك في وقت لاحق يؤسس للإخاء بين الغالب والمغلوب لتناسي آلام الحروب الأموية ؟

2- البلاذري (ت 297هـ 892 م)

يقول أنّه "ينقل عن الواقدي و**غيره**"[7] وهو لا يزيد شيئا عما جاء في الواقدي، لكن استوقفتنا عبارة : "**غيره**" فمن هو غيره هذا، لأنّ الجميع ينقل رواية الواقدي، وهي الرواية التي لم تشر إلى أبناء "الكاهنة"، ولكنها تصوّر الوضع في إفريقية على أنّه غير قارّ وأنّ الحكم فيها كان جائرا قمعيا على رأسه امرأة غير مسلمة، محت كلّ أثر للإسلام منذ مقتل زهير بن قيس[8]، وهو بذلك يسير بالقارئ إلى تقبّل فكرة خلو البلاد من نظام عادل يحكمه وبالتالي مشروعية إرسال قائد فاتح إلى إفريقية من قبل الخليفة الأموي، وذلك القائد لن يكون غير حسان بن النعمان الغساني.

يُفْهَم من نصوص هذين المؤرخين أنّ المهمّة الدعوية والحربية واحدة، فهي مجسّدة في شخص القائد الأعلى لجيش يغزو بأمر من الخليفة المنفّذ لإرادة الله طبقا لشريعة الإسلام، وهي نصوص موجّهة إلى جمهور المسلمين في المشرق تبيّن له كما رأينا الوضع الذي كانت عليه إفريقيّة لتبرير العمل الحربي الذي سيقوم به القائد الذي سيرسله الخليفة.

وعموما فإن هذه الكتابات التي توغلت ورسخت في الأذهان تعكس ما ينبغي أن يكون عليه الحال بحسب النصوص الإسلامية، وهنا ينبغي أن نتساءل عن مدى مطابقتها لواقع البلاد خلال هذه الحروب أو الغزو كما تسمّيه المصادر العربية، ومع أن المعلومات في هذا الشأن قليلة إلاّ أنّ الكثير من النصوص بل والأحاديث الملفّقة تثبت أنّ الواقع الذي عرفته البلاد خلال حروب التوسّع الأموي وعصر الولاة كان مغايرا تماما، وقد ظلّ يتغذى من نشوة الانتصار التي لا يخلو منها أيّ منتصر عبر التاريخ، وفيه الكثير من مظاهر الاستعلاء والتجاوزات الخطيرة مما جعل الأفارقة (البربر) يكافحون في ظل الإسلام للحصول على الاستقلال والتخلّص من تسلّط الأمراء الأمويين الذين لم يعرف تاريخ أفريقيا الشمالية مثيلا لهم في التسلط والقهر والابتزاز.

---

[6] عن ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 4، بيروت 1965 ، ص 371.

[7] البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) ، فتوح البلدان تحقيق عبد الله أنيس و عمر أنيس الطباع ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت 1987 ص 321.

[8] قيس بن زهير البلوي، قائد عسكري أموي عينه عبد الملك بن مروان، فغزا إفريقية، وانتصر وهو قاتل كسيلة انتقاما لمقتل عقبة، وفي طريق عودته إلى مصر دخل في معركة ضدّ الروم في برقة فقتل في تلك المعركة.

3- ابن الأثير (555-630 هـ1160 -1233م)

مع أنّ التركيبة الأولى لأسطورة "الكاهنة" كانت مشرقية، إلاّ أن المؤرّخين المغاربة استقلّوا بالموضوع، وأصبح المشارقة في وقت لاحق يأخذون عنهم وهذا ابن الأثير واحد منهم، ولعلّ أهمّ ما ورد في نصّه عن "الكاهنة" هو سياسة الأرض المحروقة التي سلكتها، ينقل عن "الكاهنة" قولها: " **(...) إنّ العرب يريدون البلاد والذهب والفضة ونحن إنما نريد المزارع والمراعي ولا أرى إلاّ أن أخرّب إفريقية حتى ييأسوا منها وفرّقت أصحابها (...) فخربوها وهدموا الحصون ونهبوا الأموال ... الخ"** [9].

الواقع أنّ نصّ الواقدي المشار إليه آنفا يتضمّن الإشارة إلى قسوة "الكاهنة" وشدّتها لكن في نصّ تاريخي يعتمد على المرويات الشفوية يمكن للفكرة أو الصورة الصغيرة أن تكبر مع الأيام وتوالي السنين والأجيال، تماما مثل كرة الثلج المدحرجة، وها نحن نرى كيف تحوّلت الصرامة والحزم التي تميّز سياسة كلّ القادة الحربيين (ومنهم الملكة المحاربة "الكاهنة") لدى الواقدي (القرن التاسع) إلى تشدّد وقسوة فظيعة، وهو دون ريب لا يمكن أن ينطق بحرف واحد في شأن السبي والأسر وتجريد الناس من كلّ ما يملكون عقب كلّ معركة أو غارة يقوم بها جيش التوسع الأموي، وأكثر من ذلك ها نحن نجد إشارة الواقدي تكبر لتتحوّل (في نصّ ابن الأثير) إلى سياسة تخريب ودمار تامّ أو ما يعبّر عنه حديثا في لغة الحروب بسياسة الأرض المحروقة، والغريب أنّ كل من جاء من المؤرخين لاحقا لم يتوقّف لحظة لقراءة هذه الرواية قراءة نقدية، مع أنّها لا تتطلب جهدا كبيرا لكشف زيفها، وهذا موضوع يتطلّب دراسة خاصّة.

ب- المؤرخون الأفارقة

1- ابن عبد الحكم (257 -187هـ)

يمكن اعتبار **ابن عبد الحكم** رائدهم، فلطالما كانت مصر منطلق الجيوش الأموية الغازية بل كان القادة الأوائل ولاة على مصر وما يليها غربا أي مصر والمغرب، فقد روى عن شيخه عثمان بن صالح (ت 835م) ما يتعلّق بأخبار "الكاهنة". وأهمّ ما نجد في رواية ابن عبد الحكم هي تفاصيل لم يذكرها غيره، مثل إشارته إلى أحد أبناء "الكاهنة" بقوله " **... وخرج ابن الكاهنة البربري على إثر عقبة، كلما رحل عقبة عن منهل دفنه ابن الكاهنة، فلم يزل كذلك حتى انتهى عقبة إلى السوس، و(هو) لا يشعر بما صنع البربري (...) وانصرف راجعا والمياه قد غوّرت ... الخ"**[10] ويضيف بعد الحديث عن ظروف مقتل عقبة قائلا : **"(...) ثمّ زحف ابن الكاهنة إلى القيروان يريد عمر بن علي وزهير بن قيس فقاتلاه قتالا شديدا فهزم ابن الكاهنة وقتل أصحابه"** [11] وقد كانت هذه الرواية عن ابن "الكاهنة" محل نقاش بين المؤرّخين والباحثين فبعضهم رأى خطأ أنّ المقصود بابن "الكاهنة" هو كسيلة، ولكن هذا لا يصحّ لأنّ كسيلة ظلّ على امتداد حملة عقبة ورجوعه أسيرا مقيَّدا.

نجد في رواية ابن عبد الحكم بعض الخصوصية منها أنّه حدّد تاريخ انطلاق حملة حسان بالسنة 73 هـ 692 م متقدّما نحو المنطقة الطرابلسية وقرطاج ومن هناك **"(...) انصرف، وغزا الكاهنة وهي إذ ذاك ملكة البربر وقد غلبت على جلّ إفريقية، فلقيها على نهر يسمّى نهر البلاء ، فاقتتلوا قتالا شديدا فهزمته وقتلت من أصحابه وأسرت منهم ثمانين رجلا وأفلت حسان ونفذ من مكانه إلى**

---

[9] ابن الأثير (ابو الحسن الشيباني الجزري) ، مرجع سابق، ص 32.

[10] ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) ، فتوح مصر والمغرب تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2004 ، ص 226.

[11] نفسه ص 227.

أنطابلس ....الخ " [12] فهو يصف المعركة بأنّها شديدة ويذكر المكان الذي دارت فيه ويحدّد عدد الأسرى بثمانين أطلقت الملكة سراحهم ما عدا أحدهم وهو المسمّى خالد بن يزيد العبسي الذي استبقته عندها وتبنّته، وهنا نلمس تغيُّرا في الرواية التي اصطبغت بشيء من الرومانسية، لمحو أثر هزيمة الجيش الأموي كما يبدو، وستكون قصّة الأسير خالد بن يزيد هي القضية المركزية، ولجلب الأذهان إليها كان لا بد من اللجوء إلى بناء حبكة أسطورية تقوم على قصة التبني وما رافقها من طقوس، وقصّة الرسائل التي وجد فيها بُناة أسطورة "الكاهنة" فرصة لدسّ عناصر دالّة على أنّها تتنبّأ بالغيب[13] كما يدلّ عليها اسمها لتصل القصة أوجها في النهاية بتنبؤ "الكاهنة" بانتصار الجيش الأموي، وبأنّ مستقبل ولديها مع المنتصر وفي الأخير تطلق سراح أسيرها الذي آخت بينه وبينهما ليأخذ لهما الأمان.

والواقع أنّ الرمزية التي في الأسطورة تهدف إلى تكريس الإخاء بين الغالب والمغلوب كما جاء في قصّة التبنّي، تقول القصّة وقد رواها ابن عبد الحكم : **"(...) خرجت (الكاهنة) ناشرة شعرها، فقالت : يا بني ، انظروا ما ذا ترون في السماء ؟ قالوا نرى شيئا من سحاب أحمر، قالت لا وإلهي ولكنها رهج خيل العرب، ثمّ قالت لخالد بن يزيد : إنّي إنّما تبنّيتك لمثل هذا اليوم وإني لمقتولة فأوصيك بأخويك هذين خيرا. فقال خالد إنّي أخاف إن كان ما تقولين حقّا ألاّ يُستبقيا، فقالت بلى ويكون أحدهما عند العرب أعظم شأنا منه اليوم فانطلِق فخذ لهما أمانا، فانطلق خالد فلقي حسان فأخبره خبرها، وأخذ لابنيْها أمانا "** [14].

لا تتطلّب مثل هذه القصص جهدا كبيرا لكشف الحبكة الأدبية التي كما ذكرنا تخلط بين الأسطورة والدعاية لتحقيق عدد من الأغراض أولها إعادة رسم صورة نمطية للملكة، والعمل على ترسيخها في أذهان الأجيال، صورة تصلح لأن تكون فزّاعة أطفال لا ملكة محاربة ذات هيبة وجلال، ولا فارسة تمتشق السيف وتكرّ في ساحة الوغى في ثقة وشموخ.

ولا ريب أنّ الترويج لمثل هذه الروايات كان بهدف تغذية الأفكار بما يتلاءم والظروف الجديدة (النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي) بعد أن طوى الزمن وقائع تلك الحروب، لتجاوز ذكراها الأليمة، وهنا يكون المؤرخ عرّاب صلح أكثر منه قاض كما هو شأن بعض المؤرّخين ذوي النزعة الموضوعية الذين لا تشغلهم سوى الحقيقة، لأنّ الصلح الذيَ يجلب الأمن والأمان أفضل في أحيان كثيرة من الحقيقة التي تلهب المشاعر وتوقظ الفتنة، لأنّ الحقيقة في التاريخ هي قبل كلّ شيء للعبرة والاعتبار.

ما تضمّنته هذه القصة الأسطورية - التي سيعيد المؤرخون الذين جاءوا من بعد ابن عبد الحكم تدوينها - يعبّر عن طرف واحد، بل وفيه إسهام في التمكين للطرف الأموي من قبل الملكة التي حنَّت ولديها على الانضمام إليه، وهي لم تفعل ذلك إلاّ لتحتفظ بكبرياء وكرامة الملوك، كما أرادت هذه الحبكة الأدبية. ومع أن نص ابن عبد الحكم يحتفظ بما جاء في نصوص الواقدي والبلاذري إلا أنه يزيد عنه عناصر تفصيلية هامّة هي : التبنّي، المراسلات بين خالد وحسان، تنبّوات "الكاهنة"، وأخيرا الحصول على الأمان لولديها بطلب منها، وكما في كلّ النصوص التاريخية الإسلامية لا يعني الفتح إخضاع بلد لبلد أو شعب لشعب أو فرد لآخر ولكن هو إخضاع الإنسان لإرادة الله.

تريد هذه الروايات أن تجعل الخلاف بين "الكاهنة" والجيش الأموي خلافا بين رسالة الله من جهة وملكة كافرة وساحرة من جهة أخرى، فحسان هنا هو وجه الإسلام المشرق و"الكاهنة" هي وجه الجاهلية المظلم، ولعلّ إضافة عنصر آخر هو سياسة الأرض المحروقة يزيد من بشاعة تلك الصورة النمطية التي ترسمها لها أقلام الكتّاب والمؤرّخين نقلا عن روايات شفوية.

---

[12] نفسه ص 228.

[13] قصّة الرسالة التي دسّها خالد بن يزيد في خبز الملّة وأخرى جعلها في قربوس حفره، وأرسلهما إلى قائده حسان، نفس المرجع ، ص ص 228-229.

[14] نفسه ص 229.

2- البكري (404-487هـ / 1014-1094م)

جغرافي، عاش في القرن الحادي عشر الميلادي، له كتاب في وصف أفريقيا، نجد فيه نصّا يتناول هزيمة حسان أولا ثم هزيمة ومقتل "الكاهنة" لاحقا، ويحدّد تاريخ انطلاق حملة حسان في شهر محرّم سنة 68 هـ (أوت 687 م) ويضيف أن حسّان : **"(...) لقي عساكر الكاهنة بأرض قابس وعلى مقدّمتها القائد الذي كان مع كسيلة بن لمزم فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل صاحب خيل حسان بن النعمان وانهزم حسان وأصحابه إلى المنهل المعروف بقصور حسان "** إلى أن يقول **: (...) وكتب إلى عبد الملك يعلمه بما نزل به من الكاهنة ويسأله أن يمدّه بالجيوش فكتب إليه عبد الملك أن يقيم بمكانه "** [15].

الجديد في نصّ البكري هو أنّ جيش "الكاهنة" الذي التقى به حسان يقوده ضابط سابق، وكأنّ هذا النصّ يريد أن يمحو وصمة العار على حسّان لكي لا يقال أنّ امرأة "كافرة وساحرة" هزمته، فأنْ يهزمه رجل أقلّ إهانةً له من أن تحلّ به تلك النكبة على يد امرأة محاربة، وبذلك تكون الهزيمة ابتلاء إلهيا له لامتحان إرادته وصبره، ويمكنه تعليل ذلك بآيات من القرآن، تجعل صورته لا تهتزّ أمام جنده وأمام عامّة المسلمين.

نجد في نصّ البكري الذي يغتني من المرويات الشفوية إضافات أخرى عبارة عن تلك التهويمات المحبّبة عند رواة الملاحم، فهو يحدّثنا عن قصر "الكاهنة" والمكان الذي حوصرت فيه وكيف **" (...) حفرت سربا في صخرة صمّاء من هذا القصر ومدينة سلقطة يمشي فيه العدد الكثير من الخيل وكان ينتقل إليها فيه الطعام وسائر ما تحتاج إليه ...الخ"** [16] . وطبيعي أن تظهر مثل هذه التهويمات في القصص الشعبي الذي تتغذى منه النصوص التاريخية العربية.

3- المالكي (ت 1058م)

هو أبو بكر عبد الله بن محمّد المالكي، كاتب تراجم وسير، لا يختلف عن ابن عبد الحكم في جوهر الموضوع، ولكن له إضافاته التفصيلية بملامح شعبية واضحة، يقول في شأن التآخي بين ولديها وخالد بن يزيد: **"(...) عمدت إلى دقيق شعير مقلوّ ، فأمرت به فلُتَّ بزيت – والبربر تسمّيه البسيسة – ثمّ دعت خالد بن يزيد وابنين لها فأمرتهم فأكلوا ثلاثتهم منها، وقالت لهم : أنتم [الآن] قد صرتم إخوة، وذلك عند البربر من أعظم العهد في جاهليتهم إذا فعلوه"**[17]. ويضيف أنّ "الكاهنة" لم تقتل في المعركة ولكن تمكّنت من الإفلات: **"(...) وهربت الكاهنة تريد قلعة بشر لتتحصّن بها فالتصقت القلعة بالأرض فهربت تريد جبال أوراس ومعها صنم عظيم من خشب كانت تعبده، يحمل بين يديها على جمل ...الخ "** [18] ثم يسجل حوارا بينها وبين أسيرها خالد بن يزيد، تقول له : **"(...) إني مقتولة وأرى رأسي تركض به الدواب مقطوعا، تمضي به إلى المشرق من حيث تطلع الشمس ..."** [19] فقال لها خالد: **" إن كان الأمر هكذا فارحلي (...) قالت وكيف أفرّ وأنا ملكة من الملوك، والملوك لا تفرّ من الموت، فأقلّد قومي عارا إلى أبد الدهر ....الخ"**[20].

لعلّ أهمّ إضافة في نصّ المالكي هي هذه الإشارة التي أوردها عن الصنم الخشبي، فقد كانت هذه الإشارة محل اهتمام كبير أخيرا، بحيث هلّل لها أولئك الذين يزعجهم أن تكون "الكاهنة" على الديانة

---

15 البكري (أبو عبيد) ، المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمَغرب، دار الكتاب الإسلامي القاهرة د.ت. ص ص 7-8.

16 نفسه ، ص 31.

17 المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمّد)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ، تحقيق بشير البكوش ، مراجعة محمد العروسي المطوي، ج1، ط 2، دار الغرب الإسلامي بيروت 1994، ص 52.

18 نفسه ، ص 54.

19 نفسه ، ص 55.

20 نفسه ، ص 55.

الموسوية، بل يزعجهم أن تكون هنا في أفريقيا ديانة موسوية حتى قبل الإسلام، مع أن الديانة الموسوية كانت في مدينة الرسول ذاتها. وهؤلاء يسقطون الحاضر على الماضي فظنّوا أنهم عثروا على الحجّة الفاصلة التي تنفي عن "الكاهنة" وعلى قومها أن تكون وأن يكونوا على الديانة الموسوية، ومع ذلك تظل هذه الرواية ضعيفة، مثلها مثل الرواية التي تجعلها موسوية الديانة لأنّ كلتا الروايتين تفتقران إلى السند الأثري، والحال أنّنا في استقرائنا للنصوص استنتجنا أنّ غرض المرويات الشفوية هو جعْل "الكاهنة" على ديانة تناقض الإسلام وتعاديه بشدّة فهي مرّة يهودية ومرّة أخرى وثنية وذلك كلّه ممزوج بطقوس سحرية وهي الصورة التي تريد هذه المرويات تثبيتها في الأذهان للإيحاء للقارئ والمطلع بعدالة العمل الحربي الذي يقوم به قادة بني أمية الذين تسميهم النصوص قادة الفتح.

في هذا السياق يقول ليويكي تادوتش : "... أبطال الحرب ضد الفتح العربي وعلى الأخصّ المعادون له : كسيلة و"الكاهنة"، تُظْهِرهم الروايات (العربية) كشخوص نصف تاريخيين، لأنّ المعلومات الإيجابية التي توجد في ثنايا هذه الروايات المتعلقة بهاتين الشخصيتين محشوة بتفاصيل قصصية أو أسطورية"[21]. وهذه هي الدراسات النقدية التي يمكن أن تفصل بين الوقائع التاريخية من جهة والتلوينات الأسطورية التي تحجب الصورة التاريخية للكاهنة من جهة أخرى.

4- الرقيق القيرواني (... ؟-425 هـ/...؟ - 1034م)

في كتاب تاريخ إفريقية والمغرب - المنسوب إليه - نجد إضافات جديدة فهو يذكر أن خالد بن يزيد أجاب "الكاهنة" عندما حدّثته عن التبني والإخاء بينه وبين ولديها أن **ثديها ليس به حليب**، كما أورد ولدي "الكاهنة" باسميهما : الأكبر اسمه **قويدر**، والأصغر اسمه **يامين** [22]. ولا ريب أن الرواية استندت إلى اعتبار "الكاهنة" موسوية وطبيعي أن يكون اسم ولدها الصغير يامين المشتقّ من اسم بنيامين الذي هو الابن الأصغر ليعقوب - كما هو معروف - ومنه أصبح اسم Benjamin يعني الأصغر في إخوته، وهو اسم لا يزال متداولا إلى اليوم في المنطقة.

5- ابن خلدون (808-732هـ/1332-1406م)

ونختم هذه الجولة في المصادر والمراجع العربية بكبير مؤرّخي البربر وهو العلاّمة عبد الرحمن ابن خلدون، هذا المؤرّخ الحصيف سيجد أمامه - وهو في القرن الرابع عشر - روايات متعدّدة ومتشعّبة عن "الكاهنة" وحروبها وديانتها وطقوسها ... الخ ظلّت تنمو وتتلوّن بألوان شتّى على امتداد قرون، فما الذي اختاره من تلك الروايات ليدوّنه ؟

الجديد في الرواية الخلدونية لوقائع الحرب بين "الكاهنة" والجيش الأموي هو إبراز الجانب البطولي للكاهنة وقومها في مواجهة الغزاة وأنّ البربر لا يقلّون شجاعة عن غيرهم[23]، فكأنّهم لا يعترضون على الإسلام كدين ولكن لا يقبلون الغزو واستباحة بلدهم وممتلكاتهم أو الخضوع للآخر بسهولة مهما كان هذا الآخر، وهو يقرّ بأنّ جراوة - قبيلة "الكاهنة" – كانت على الدين الموسوي، كما يقدّم لنا جينيالوجية "الكاهنة"، اعتمادا على نسّابة بربري اسمه هاني بن بكّور الضريسي وأورد أيضا أنها حكمت خمسا وثلاثين سنة وعاشت سبعا وعشرين ومائة سنة ، كما لم ينفِ معرفتها بالغيب (...)، وحدّد تاريخ حملة

---

[21] Lewicki (T.), "Al-Kahina, Reine de l'Aurès", *Folia Orientalia*, Vol. 28,1991, pp13-40

[22] الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب تحقيق محمد زينهم عزب، دار الفرجاني للنشر،القاهرة 1994، ص 47.

[23] اعتبر شاتسميلر أنّ كتاب العبر لابن خلدون يندرج ضمن كتابات المفاخر التي ظهرت منذ القرن 13 وهي كتابات ترد على الاستعلاء بالأصل العربي بإبراز عراقة البربر وأمجادهم على غرار كتاب مفاخر البربر لمجهول،أنظر :

Shatzmiller (M.), Mythe d'origine berbère (aspects historiographiques et sociaux) in Revue de l'occident musulman et de la méditerranée, N° 35, 1983, pp 145-156.

وهو ما اعتبره القوميون العرب اليوم نزعة شعوبية.

حسان الأولى بسنة 69 هـ 688 م وتاريخ حملته الثانية بسنة 74 هـ 693 م [24]، وهذه الرواية الخلدونية بما فيها من حذف وإضافة هي التي اختُتِمت بها هذه السلسلة الطويلة من أسطورة "الكاهنة" التي ظلت تنمو وتتفرع على امتداد قرون طويلة، وهي التي أقرّها المؤرخون المحدثون في أعمالهم وأبحاثهم[25].

أخيرا نرى أنّ الاهتمام بالموضوع عاد ليفتح باب النقاش من جديد خاصّة مع صدور رواية جيزيل حليمي[26]، مما يجعل تجاذبات التاريخ والأدب تعود لتثري الموضوع. أمّا ما جاء في مراجع أخرى مثل معالم الإيمان[27] ونهاية الأرب[28] والمؤنس[29] ... فإنه في الواقع تكرار وتواتر يتخذ من الجانب الأسطوري على الخصوص مادّة أدبية لفظية يلوّن بها ما جاء في المصادر المذكورة، وهذا الذي عبّرنا عنه بتثبيت هذه المراجع لصورة نمطية أسطورية للكاهنة، ظلّت تغتني بزخرف اللفظ حتى حجبت الصورة التاريخية في ما يشبه ظاهرة الكسوف التام !

خاتمة

لقد كانت شخصية "الكاهنة" متفرّدة، بحيث إن جيوش التوسّع الأموي لم تعترضها مقاومة منظمة تقودها ملكة فارسة محاربة في أيّ مكان آخر غير أفريقيا، خاصّة وأنّ تلك الجيوش انطلقت من بلاد ليس فيها للمرأة اعتبار كبير، بل كانت الأنثى إلى عهد قريب تدفن حية في تلك البلاد، لأنها عار على أهلها، ولا ريب أنّ الثورة التي أحدثها الإسلام على الصعيد الاجتماعي لم ترسخ بعد في الأذهان، وبذلك فإنّ جُنْد التوسع الأموي يكونون إلى ذلك الحين لا يرون في المرأة إلا سبيّة، وإذا بهم يتلقّون هزيمة نكراء على يد جيش تقوده امرأة، وهو شيء لا يمكن هضمه بسهولة.

يبدو أنّ جيوش التوسع الأموي لم تكن تدوّن وقائعها الحربية أو لم يكن لها أرشيف حربي، وتركت المسألة للروايات الشفوية، ولم ينتبه المؤرخون إلى ضرورة التدوين إلا بعد أكثر من قرن ونصف القرن وهي فترة طويلة كافية لبناء قصص أسطورية تتضاءل فيها نسبة الحقيقة ويطلق فيه العنان للخيال، وإلى

---

[24] ابن خلدون (عبد الرحمن) ، مرجع سابق ، المجلّد 13 ، ص ص 16-18.

[25] يمكن استثناء مخطوطة عبيد الله بن صالح التي درسها ليفي بروفنسال كما أشرنا إليه أعلاه حيث يرى أنّ ما جاء فيه عن الكاهنة هو الأقل - من بين النصوص العربية - إيرادا للعناصر الأسطورية في شخص الكاهنة: – Lévy Provençal (E.), op. cit. pp. 17-43. ؛ وهذه المخطوطة هي التي رجع إليها محمد طالبي في مقاله المنشور في الكراسات التونسية :

Talbi (T.), *Un nouveau fragment de l'Histoire de l'Occident Musulman* (*62-196/682-812*), *l'épopée d'al-Kāhina*, in *C.T.* 1971, no. 73. pp. 19-52.

والحال أنّ موضوعنا هنا في جوهره يختلف عن مرامي الكاتبين، وعلى سبيل المثال لا نوافق محمد طالبي في ما ذهب إليه من أنّ الكاهنة قد تكون من أصل مختلط بربري إغريقي اعتمادا على اسم أبيها

Mathieu ، Talbi, (M.), Al Kahina, *Encycl. de l'ISLAM II*, V.4, pp.422-423.

لأنّ اعتناق دين يؤدي بالضرورة إلى تغيير جذري في الأونوماستيكا. وليست للأعلام دلالة عرقية بقدر ما لها من دلالات عقائدية ثقافية، كما أنّ مخطوطة عبيد الله بن صالح ظلت حبيسة الأدراج وليست هي التي ثبّتت صورة الكاهنة في الأذهان، وهنا يمكن أن نتساءل عن سرّ إهمال هذه المخطوطة أو بالأخرى عن الغرض من إخفائها؟.

[26] Halimi (Gisèle), La Kahina, éd. Plon, Paris 2006, 260p.

[27] معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تصنيف : الدباغ (عبد الرحمن بن محمد الأنصاري) أكمله : ابن ناجي (أبو القاسم بن عيسى) ج 1 ط 2، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح ، نشر مكتبة الخانجي بمصر 1968 ، ص ص 61- 67.

[28] النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق : مفيد قمحية وجماعة، ط1 ج 24 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 2004، ص ص 19- 20.

[29] ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني) ، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ، ط1 ، تونس 1286 هـ ص ص 17- 18 وكذلك ص ص 32- 33.

جانب الأسطورة التي يمكن أن تكون إيجابية لأنها كثيرا ما تُشِيد بالأبطال وتبرز تميّزهم الخارق، هناك الراويات الدعائية التي تسعى إلى تقديم صورة مشوّهة وتثبيتها في أذهان الأجيال القادمة، وفي حال "الكاهنة" كانت الدعاية الأموية هي المتحكمة في بناء أسطورتها حيث اتجه الخيال إلى تلوينها بألوان فلكلورية تخلع على الملكة صفات الساحرة المتنبّئة بالغيب وما يصاحب ذلك من طقوس، لأن الخيال لم يكن حرّا طليقا بل ظلّ تحت تأثير نزعة دعائية دينية قديما وقومية حديثا، وهي نزعة مناهضة لرمزية الملكة "الكاهنة" التي تحمل دلالات عميقة إلى اليوم.

إذا طبّقنا منهجية نقد النصّ التاريخي فإن المشاهد التي ترسمها الروايات الأموية لا تلبث أن تذوب أمام شمس الحقيقة الساطعة، ولننظر فقط إلى الدعاية التي تصف "الكاهنة" **بالتعسف والجور** إزاء رعاياها في نصّ الواقدي الذي يشكّل الأساس الذي نقل عنه جميع من جاء بعده، هذه الرواية ذاتها هي التي ستثبت تسامح "الكاهنة" حين تشهد بأنّها **أطلقت سراح أسراها**، فهل هناك مستبدّ وطاغية على شعبه، عطوف ورؤوم على أعدائه ؟ لا ريب أنّ هذه الشهادة التي فلتت من بين الادّعاءات المغرضة خير دليل على الوجه الحقيقي للملكة الأفريقية، وستصل الدعاية أقصى مداها باختراع قصّة تخريب "الكاهنة" لأفريقيا وهي قصّة مخترعة وغير رصينة. وفي تاريخ الحروب يعرف الكلّ أنّ الغزاة هم المخرّبون وأنّ التخريب هو أحد أدوات النهب ووسيلة ضغط لإجبار العدو على النزول إلى ميدان المعركة، ولا نظنّ أنّ جيشا قادما من صحراء قاحلة وليس في يده غير السيف يصل إلى أفريقيا الخضراء اليانعة "فيعفّ" عن مدّ يده وسيفه بالنهب والتخريب والتدمير إلى ذلك البساط الأخضر الذي نجد أحسن وصف له في ابن عبد الحكم **"... كانت إفريقية ظلاّ واحدا من طرابلس إلى البحر "** [30] وأكثر من هذا كلّه لم نجد اليوم من بين الذين اطلعنا على أعمالهم البحثية، من درس الموضوع بما يوافق المنهجية العلمية بل إنّ جميع من اطّلعنا على بحوثهم وإشاراتهم ينطلقون من نصّ الرواية على أنّه الحقيقة التي لا يمتدّ إليها الشكّ ثمّ يتوسّعون في النتائج المترتبة عنها، وهو ما يوحي للقارئ أنّ "الغزاة" كانوا هداة منقذين !.

ولتبرئة أولئك الغزاة من ذلك الخراب، يأتي دور الدعاية الأموية التي تنسب كلّ ذلك الجرم إلى "الكاهنة"، بل وتبرّر كل ذلك تبريرا غاية في التبسيط وهو أنّ "الكاهنة" لا تعرف هدف العرب وتعتقد أنهم مثل الرومان، فيا لبراعة هذه الدعاية !

وفي الأخير نسجّل خلو المصادر العربية من أيّ ذكر لوجود حوار ديني أو دعاة يشرحون الدين الإسلامي على امتداد فصول الصراع بين الحملة الأموية بقيادة حسان بن النعمان والمملكة الأفريقية بزعامة الملكة تيهيا، بل إن النصوص التي استعرضناها صريحة للغاية وتسمّي الأشياء بأسمائها، حيث نجد فيها مفردات الغزو والسبي والقتل ونهب الأموال ونصيب كلّ فرد من الفيء والجواري ولا نجد كلمة واحدة تشير إلى تبليغ تعاليم دين يُفترَض أنّ القائد الأموي جاء لنشره والتعريف به.

مصادر ومراجع

أ- عربية :

ابن الأثير، (1965): الكامل في التاريخ، ج 4، بيروت.

ابن أبي دينار، (1286 هـ) (محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني) ، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، ط1 ، تونس.

[30] **"...وكانت أفريقية ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة في قرى متصلة ..."**، وردت العبارة في ابن عبد الحكم وابن خلدون وغيرهما وخاصة ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج 1 ، ط 3، تحقيق ومراجعة **ج س. كولان** و إ **. ليفي بروفنسال** نشر دار الثقافة، بيروت لبنان 1983، ص 36 .

ابن خلدون (عبد الرحمن) (1983)، العبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون، المجلّد 13، طبع ونشر دار الكتاب اللبناني، بيروت.

ابن عبد الحكم (2004) (عبد الرحمن بن عبد الله)، فتوح مصر والمغرب تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

ابن عذاري، (1983) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج 1 ، ط 3، تحقيق ومراجعة **ج س. كولان** و إ . **ليفي بروفنسال** نشر دار الثقافة، بيروت.

البكري(أبو عبيد)،المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمَغرب،دار الكتاب الإسلامي القاهرة د.ت.

البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) ، فتوح البلدان تحقيق عبد الله أنيس وعمر أنيس الطباع ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت 1987.

الحافظ الذهبي : سير أعلام النبلاء ج 09 ط 1 ، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت 1985.

الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب تحقيق محمد زينهم عزب، دار الفرجاني للنشر،القاهرة 1994.

المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمّد)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ، تحقيق بشير البكوش ، مراجعة محمد العروسي المطوي، ج1، ط 2، دار الغرب الإسلامي بيروت 1994.

معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تصنيف : الدباغ (عبد الرحمن بن محمد الأنصاري) أكمله : ابن ناجي (أبو القاسم بن عيسى) ج 1 ط 2، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح ، نشر مكتبة الخانجي بمصر 1968 ، ص ص 61- 67.

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق : مفيد قمحية وجماعة، ط1 ج 24 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 2004.

ب- فرنسية:

Bloch, M. (1962), *Réflexions d'un historien sur les fausses rumeurs de la guerre, Mélanges historiques, Publications de l'école pratique des hautes études*, Vol. I, Paris 1963.

Ellul, J., *Propagandes, Armand Colin.*

Hatzmiller, M., (1983), « Mythe d'origine berbère (aspects historiographiques et sociaux) », *in Revue de l'occident musulman et de la méditerranée*, N° 35.

Levi-Provençal, E. (1954), « Un nouveau récit de la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes », *Arabica*, Vol. 1.

Lewicki, T., « Al-Kahina, Reine de l'Aurès », *Folia Orientalia*, Vol. 28,1991.

Rey, A. (1998), *Dictionnaire historique de la langue française ; Dictionnaire LE ROBERT, Paris.*

Talbi, M., Al Kahina, *Encycl. de l'ISLAM II*, V.4.

Talbi, T. (1971), *Un nouveau fragment de l'Histoire de l'Occident Musulman* (*62-196/682-812*), *l'épopée d'al-Kāhina*, in *C.T.*, no. 73.